بسم الله الرحمن الرحيم

الاستشراق ومصادر المعرفة

الحمدلله رب العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّدﷺ، وعلى آله الطاهرينعليهم السلام، وبعد...

إنّ عمليّة صناعة العلوم وإنتاجها وتطوّرها من القضايا الثابتة في التاريخ، والمتجذّرة بتجذّر الحضارات وقِدمها، ولا يبتعد عن هذه الثابتة قضيةٌ أخرى بنفس الأهمية، ترتبط بعمليّة تناقل العلوم بين الشعوب والدول والحضارات على قاعدة التشارك المعرفي والحضاري، بل إنّ هذين الأمرين من السنن الطبيعيّة في مسيرة تأسيس العلوم وتطوّرها، وتطوير الأفكار وتناقلها بين الأجيال عبر التاريخ.

وتثبت وقائع نهوض الحضارات وقيامها عبر التاريخ أنّها عمليّة تفاعليّة ومستمرّة فيما بينها؛ ولم يسجّل لنا التاريخ قيام حضارة من دون هذا التّفاعل والتّأثّر بالحضارات الأخرى، السابقة أو المعاصرة لها؛ وذلك لأنّ هذا التفاعل والتأثّر يعدّ مكسبًا كبيرًا على مرّ التاريخ؛ إذ لا توجد حضارة نشأت من تلقاء نفسها بمعزل عن الحضارات الأخرى، أو أنّها لم تتفاعل مع غيرها. ففي عمليّات التّفاعل تأخذ كلّ حضارة ما يناسبها وما يتّفق مع طبيعتها، وتعطي الحضارات الأخرى ما تجود به بما يتلاءم مع نشاطها، والجدير بالذكر أنّه لا يمكن أن تكمل

أيّ حضارة مسيرتها دون حدوث تبادلٍ وتفاعلٍ حضاريٍّ والذي تحتّمه طبيعة الحياة.

ويبدو أنّ الكثير من الأطراف التي شاركت في المراحل المختلفة لهذه العمليّات العلمية والمعرفية لم تكن منطلقةً أو محكومةً بخلفيّات استعماريّة أو بما يُصطلح عليه الغزو الثقافي والحرب الناعمة للبلدان والشعوب، أو بتحقيق أهداف غير مباشرة ترتبط بالتبعيّة السياسيّة أو الاقتصاديّة للبلدان الكبرى والمسيطرة. وإنّما كان الطابع العام مرتبطاً بأبعاد علميّة ومعرفيّة لها صِلة بتطوّر المجتمعات واحتياجاتها للعلوم التقنيّة والإنسانيّة والتي تتبلور عند العلماء والحضارات المختلفة.

ولكنّنا عندما نعمِّق البحثَ ونوسِّع أدواته في محاولة للكشف عن منطلقات المستشرقين ودوافعهم، نستكشف نزعةً غريبة عن روح العلم والمعرفة ودخيلة على أهل العلم والمعرفة، تتمثّل في الغزو الثقافي والمعرفي الاستعماري حتّى في العلوم والمعارف والفنون للشعوب وكل مكوّناتها الحضاريّة والتراثيّة، وأكثر ما نراها تتجلّى في صناعة العلوم، وتحوّلها إلى مصادر للمعرفة عند الباحثين والمؤسّسات العلميّة والتعليميّة ونحوها. فإنّ الغربيّين على اختلاف مدارسهم وأعلامهم وتنوّعها مسكونون بروح الاستعلاء حتى في المجال العلمي والمعرفي؛ ولذلك فهم يسعون دائمًا وبمختلف الأساليب والوسائل والتقنيات لجعل نتاجهاتهم ودراساتهم في تراث العرب والمسلمين من المرجعيات العلمية والمعرفية الحاكمة للغربيين بل وللمسلمين أنفسهم. وبهذا يصبح المنفذ المعرفي إلى تراث المسلمين هو الغربي نفسه، وليس منابع الإسلام الصافية ومصادره الأصيلة، وتشكّل هذه العملية أحد أكبر جرائم التزوير المعرفي في التاريخ بحق التراث الإسلامي والعربي.

وتختلف المنهجية المعتمدة في هذا النوع من الأعمال عن الأساليب المتعارفة التي يعمل أصحابها على إضعاف فكر الآخر ومنظومته الثقافيّة والقيميّة والعلميّة، أو

السعي لإثبات فشل نموذجه الحضاري، وعدم صلاحيّته لبناء المجتمع الإنساني المتقدّم في ضوئه، لأنّ هذه الأساليب المباشرة أصبحت مكشوفة وواضحة لدى العلماء والمفكّرين ولم يغب عن أحد طرق مواجهتها. ولهذا فقد سلك المستشرقون طرقًا أخرى واعتمدوا على منهجية يقدّمون بموجبها الشرق بكلّ ما يحويه من حضارة وتراث ودين وعادات وأعراف أمام الغرب بصورة مشوّهة وهزيلة، لتكوين صورة سيّئة ومغلوطة عن العرب والمسلمين وتراثهم في ذهن الغربي المعاصر. وتقتضي الأدوات المعرفية لهذه المنهجيّة أن يقتحم المستشرقون في جميع المعارف الإسلاميّة، فلا تكاد تجد مجالًا يخصّ المسلمين إلّا وتجدهم قد تطرّقوا إليه، ويؤكّد الكثير من الباحثين أنّ كتبهم قد أصبحت مصادر للدراسات الإسلاميّة ليس للأوروبيّين فحسب بل للعرب والمسلمين أيضًا، وقد تأثّر بدراساتهم وبأراءهم أجيالٌ من الباحثين المسلمين، لذلك يتساءل المرء عن أسباب دراستهم للمعارف الإسلاميّة؟ وهل قصدوا بدراساتهم تلك العلم والمعرفة؟ أم كانت لهم مقاصد أخرى! وما هي المكائد والشبهات التي أثاروها في الاسلام[١]؟

ونحن عندما ننظر إلى دوائر عمل المستشرقين نجد بأنّها تشمل كل ما صدر ويصدر عن الغربيّين من أوروبيّين أو أمريكيّين وغيرهم من دراسات أكاديمّة تتناول قضايا المسلمين في العقيدة أو الشريعة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أو الفكر أو الفنّ وغير ذلك ممّا يتعلّق بها من علوم وفنون، كما يلحق بها في زماننا ما تصنعه وتبثّه وسائل الإعلام الغربيّة بأنواعها.

وهذا ما يعزّز القناعة بضرورة التصدّي البحثي المركّز لهذه القضيّة وتسليط الضوء على خلفيّاتها وآثارها، فقد احتل الاستشراق -كما يؤكّد إدوارد سعيد- مركزًا من السيادة على الحقل المعرفي المتعلّق بالشرق لدرجةٍ أوصلت المؤلّف إلى

[١]- يراجع: مجلة دراسات استشراقية، العدد١٥، صيف ٢٠١٨. الدراسات الاستشراقية وخطرها على العقيدة والفكر الإسلامي.

القناعة والإيمان بأنّه ليس في وسع أيّ إنسان أن يكتب عن الشرق، أو يفكّر فيه، أو يمارس عملًا متعلّقًا به، دون أن يأخذ بعين الاعتبار «الحدود المعوّقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل». وبعبارة أخرى، «فإنّ الشرق بسبب الاستشراق لم يكن و(ليس) موضوعًا حرًّا للفكر أو الفعل».

ويؤكّد أحدهم واصفًا هذا الواقع بقوله: «إنّ المستشرق يجعل الشرق يتحدّث، ويجعل أسراره واضحة للغرب، ومن أجله، نيابة عن الشرق المسكين». ولهذا فإنّ الغرب حريص كل الحرص على معرفة الشرق وأحواله، ومقدّراته، وثقافاته وتجاربه القديمة والحديثة.

ومن جملة وسائلهم أيضًا الغزو الفكري حيث استغلوا انبهار بعض المسلمين بالحضارة الغربيّة في نشر الثقافة الغربيّة، فيأخذ المسلمون من الحضارة الغربيّة ما يمكن أن تبعدهم عن جذورهم، فسلاح التغريب من أخطر الأسلحة التي استخدمها الغرب ضدّ الشرق، وقد اضطلع المستشرقون بهذه المهمّة. وبسبب السيطرة الاستعماريّة بدأت المؤثّرات الغربيّة تتدفّق على البلاد الإسلاميّة حتى غدا تقليد الغرب والتشبّه بأخلاقهم وأسلوب معيشتهم واقتباس أفكارهم وآراءهم الاجتماعيّة والسياسيّة، أكبر عوامل التبدّل والانقلاب في العالم الإسلامي[١].

وحاول المستشرقون ضرب العقيدة الإسلاميّة وبث الشكوك حول صحّة رسالة الإسلام، فمن وسائلهم في التشكيك بصحّة رسالة الرسول ﷺ ومصدرها الإلهي، إنكار النبوّة والادّعاء أنّ مصدر الدين الإسلامي من اليهوديّة والنصرانيّة، والتشكيك في صحّة الأحاديث النبويّة وفي الفقه الإسلامي، وفي قدرة اللغة العربيّة على مواكبة التطوّر العلمي، وفي قيمة التراث الحضاري الإسلامي وأنّه منقول من الحضارة الرومانيّة واليونانيّة، والسخرية من بعض الأحكام الدينيّة، كدعوى عدم مناسبتها لوقتنا الحاضر، وغير ذلك من مزاعم ذات أبعاد خطيرة.

[١]- إبراهيم الفيومي، محمد، الاستشراق رسالة إستعمار، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٩٣، ص٨١.

وإلى جانب ذلك كلّه فقد تصدّرت الجامعات الغربيّة الأوروبيّة والأمريكيّة مصادر تلقّي العلم لدى الكثيرين من أبناء العالم الإسلامي في الكثير من المجالات العلميّة ولا سيّما في العلوم الإنسانيّة. وهناك من درس على أيدي المستشرقين فتشبّع بأفكار أساتذتهم وآرائهم، وحمل فكره الغربي معه إلى حيث رحل.

ونذكر على سبيل المثال بعض النماذج للخطاب الاستشراقي الذي يبيّن طريقة تعامل المستشرقين مع تراث المسلمين، فهذا إجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠-١٩٢١م): المستشرق اليهوديّ المجريّ، ومن أبرز مؤسّسي الدراسات الإسلاميّة الحديثة في أوروبا، يرى «أنّ الرسول اضطرّته مشاغله خلال النصف الأوّل من حياته إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكارًا أخذ يجترّها في قرارة نفسه وهو منطوٍ في تأمّلاته أثناء عزلته»[١]. ومن الواضح أنّ مثل هذا الخطاب علاوةً على أنّه لا يليق بأكاديمي يعبّر عن نظرة أيديولوجيّة على دين سماوي من أعظم الأديان وأكثرها سماحةً في العالم، وذلك باستهدافه لمصدر هذا الدين المتمثّل بالوحي السماوي عبر النبي محمّدﷺ.

وفي نفس هذا السياق جاء المستشرق الإنجليزي «هاملتون جِب» هامِلْتُون ألكسندر روسكن جب (ت: ١٩٧١م): الذي قال «إنّ محمّداًﷺ ككلّ شخصية مبدعة قد تأثّر بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به»[٢]، مؤكّدًا على أنّ القرآن بالنهاية من إبداعاته، وهذا سبب وجود الاختلافات فيه[٣].

ويُرجِع المستشرق الإنكليزي «وليام مونتغمري واط (١٩٠٩-٢٠٠٦م): «الاختلاف الموجود في الآيات القرآنيّة إلى اختلاف المصادر التي اعتمد عليها محمّدﷺ في تأليفه للقرآن، ولذلك كانت «السور القرآنيّة الأولى التي تتحدّث عن

[١]- جولدتسيهر، إجناتس: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرين، دار الرائد العربي، بيروت، لا.ت، ص٧.

[٢]- الحاج، ساسي سالم: نقد الخطاب الاستشراقي، ج١، ص٢٦٨، نقلاً عن: Gibb (H.): Mohammedanisme, p27

[٣]- م.ن.

الوحدانية تضع القرآن في مرتبة الوحدانيّة اليهوديّة المسيحيّة، أمّا السور القرآنيّة الأخيرة فإنّها تقترب من التعاليم الإنجيليّة القديم منها والحديث»[١].

فمن الواضح أنّ مثل هذا الخطاب الذي يتكرّر في دراسات المستشرقين القديمة والمعاصرة يهدف إلى إسقاط أعظم شخصيّة إنسانيّة في تاريخ البشر وهي شخصيّة النبي محمّدﷺ، والكتاب الذي جاء به وهو القرآن الكريم، وبهذا يسهل تناول كل ما يتعلّق بكتابه السماوي وعقيدته التي دعا إليها، وشريعته التي شرّعها وأمر بالإلتزام بها. لتتحوّل هذه الصورة -وقد تحوّلت بالفعل- إلى مشهدية ثابتة في الفكر الغربي عند الكثير من المؤسّسات والباحثين، بحيث لم يخرج عنها إلّا شرذمة قليلة.

والحمد لله رب العالمين

مدير التَّحرير

حسن أحمد الهادي

[١]- «محمد في مكة»، و«محمد في المدينة». انظر: الزركلي، موسوعة الأعلام، ص٣٣٩.